المبحث السابع

صلة عمل الجوارح بالإيمان

وبذا يتضح قول علماء أهل السُنَّة:

أن الإيمان قول وعمل،يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية،والعمل من الإيمان [١]، بعيداً عن تهوُّك المتهوكين، وتنطُّع المتنطعين، وسفسطة المتفلسفين، وتشدُّق

(١) «العمل من الإيمان» قطعة من حديث رواه الطبرانى فى الكبير برقم ٦٣ ، والبيهقى فى شُعب الإيمان برقم ٧٧١١٠ ، وفى السنن الكبرى برقم ٢٠٥٩٧ ، والهيثمى فى مجمع الزوائد برقم ١٢٧٠٧ ، وضعَّفه.
أقول: العمل بحديث ضعيف خير من الرأى، وخصوصاً إذا كان قد أجمع على معناه الصحابة، وقد نقل إجماعهم على أن الأعمال كلها داخلة فى مسمى الإيمان الإمام الشافعى،راجع ما نقلته من كلام الإمام ابن رجب فى نهاية المبحث الثانى.
ويقول الحافظ ابن حكمى: وهذا المعنى هو الذى قصده السلف الصالح بقولهم رحمهم الله تعالى إن الإيمان اعتقاد وقول وعمل وأن الأعمال كلها داخلة فى مسمى الإيمان وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكاراً شديداً وممن أنكر ذلك على قائله وجعله قولاً محدثاً ممن سُمى لنا سعيدٌ بن جبير وميمون بن مهران وقتادة وأيوب السختياني والنخعي والزهرى وإبراهيم ويحيى بن أبى كثير والثورى و الأوزاعي وعمر بن عبد العزيز وغيرهم قال الثورى: هو رأى محدث أدركنا الناس على غيره، وقال الاوزاعي: كان من مضى من السلف لا يفرقون بين العمل والإيمان، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار أما بعد: فإن الإيمان فرائض وشرائع فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان . من معارج القبول ٢ / ٦٠٠ .
ويحكى الإجماع أيضاً الاوزاعي وإن لم يصرح به حين قال: اصبر نفسك على السُنَّة ، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكُف عما كفوا عنه، واسلُك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم، ولا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم القول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بالنية وموافقة للسُنَّة، وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل، العمل من الإيمان، والإيمان من العمل، وإنما الإيمان إسم جامع كما يجمع هذه الأديان اسمها، ويصدقه العمل، فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق ذلك بعمله فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه ولم يصدقه بعمله لم يقبل منه؛ وكان في الآخرة من الخاسرين. رواه ابن بطة فى الإبانة الكبرى ١ / ٣٣٩ ، برقم ١٠٩٧ ، وأبو نعيم فى الحلية ٦ / ١٤٤ . أقول: ويعنى هذا أن الحديث ضعيف السند صحيح المتن لتظاهر الأدلة على تاكيد معناه، ولعدم وجود ما يعارضه. ومما يؤكد معناه ما عقده البخارى باباً فى صحيحة بعنوان باب من قال إن الإيمان هو العمل ، ثم أدرج تحته حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئل: أى العمل أفضل ؟ فقال: «**إيمان بالله ورسوله** . قيل ثم ماذا ؟، قال: **الجهاد فى سبيل الله** . قيل ثم ماذا ؟ ، قال: **حج مبرور**» .

المتكلمين، ولكن بعمق فهم الأولين، ووسطية هذه الأمة وهذا الدين، فإن المتمعن المدقق فيما قالوا لوجد أنهم قالوا:(العمل من الإيمان).

قال ابن تيمية: احتج أحمد على أن الأعمال من الإيمان بحجج كثيرة، فقال:... ، ثم ذكر جملة من الآيات والأحاديث الدالة على أن الأعمال من الإيمان سبق ذكرها في طيات الكلام فلا داعي لإعادتها.

ثم قال: قلتُ: هذا الذي ذكره الإمام أحمد من أحسن ما احتج الناس به عليهم، جمع في ذلك جُملاً يقول غيره بعضها [١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازاً، وإن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً، أو خارجاً عن أصل مسمى الإيمان [٢] .

وقال أيضاً: وأما أهل السُّنَّة والجماعة من: الصحابة جميعهم، والتابعين، وأئمة أهل السُّنَّة، وأهل الحديث، وجماهير الفقهاء، والصوفية، مثل: مالك، والثورى، والأوزاعى، وحماد بن زيد، والشافعى، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، ومحققي أهل الكلام، فاتفقوا على أن الإيمان والدين قول وعمل، هذا لفظ السلف من الصحابة، وغيرهم، وإن كان قد يعني بالإيمان في بعض المواضع ما يغاير العمل، لكن الأعمال الصالحة كلها تدخل أيضاً في مسمى الدين والإيمان، ويدخل في القول قول القلب واللسان وفي العمل عمل القلب والجوارح [٣] .

وقال أيضاً: إسم الإيمان يستعمل مطلقاً، ويستعمل مقيداً، وإذا استعمل مطلقاً فجميع ما يحبه الله ورسوله، من أقوال العبد، وأعماله الباطنة والظاهرة، يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف، والأئمة من الصحابة، والتابعين،

---

(١) مجموع الفتاوى ٧ / ٢٦٧ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٧١ .

(٣) مجموع الفتاوى ١٢ / ٢٦٦ .

وتابعيهم، الذين يجعلون الإيمان قولاً وعملاً، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ويُدخلون جميع الطاعات فرضها ونفلها في مسماه، وهذا مذهب الجماهير من أهل الحديث، والتصوف، والكلام، والفقة من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد، وغيرهم (١).

أقول: كان شيخ الإسلام هو أيضاً يحكى إجماع السلف على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان.

قال ابن عثيمين: المرجئة لم أعلم أن أحداً أخرجهم من الإسلام، هم لا شك أنهم مخطئون، وأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، كما يدل على ذلك نصوص كثيرة (٢).

وقال أيضاً: ونحن نرد عليهم (أي المرجئة) فنقول: إخراجكم الأعمال من الإيمان ليس بصحيح؛ فإن الأعمال داخلة في الإيمان (٣).

وقال الشيخ الفوزان: فالقول الحق أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، فالأعمال داخلة في حقيقة الإيمان، وليست بشيء زائد عن الإيمان (٤).

ويقول أبو اسحق الحويني: فنحن نعتقد أن العمل جزء من الإيمان لا نقول شرط حتى نغلق الباب على الخوارج والمرجئة.... فالصواب أن العمل جزء من الإيمان (٥).

ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية الصلة الدقيقة بين الأعمال الصالحة والايمان فيقول: لكن الأعمال الصالحة كلها تدخل أيضاً في مسمى الدين والإيمان،

---

(١) مجموع الفتاوى ٧ / ٤٢١.

(٢) لقاءات الباب المفتوح ٢ / ٢٦٤ فتوى رقم ٩٨٠، وفتاوى العلماء حول الدعوة والجماعات الإسلامية ص ٢٦٥.

(٣) شرح العقيدة الواسطية ص ٥٦٨.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥١.

(٥) من شريط بعنوان: " تحت كل محنة بُشرى "، الوجه الثاني.

ويدخل في القول قول القلب واللسان وفي العمل عمل القلب والجوارح.

وقال المفسرون لمذهبهم: أن له أصولاً وفروعاً، وهو مشتمل على أركان، وواجبات ليست بأركان، ومستحبات [١].

وينسج العلامة الألباني على نفس المنوال فيقول: (هذا لَيَدُل على أن الإيمان بدون عمل لا يفيد وأن العمل الصالح من الإيمان، فالله حينما يذكر الإيمان يذكره مقروناً بالعمل الصالح .... ثم قال: على كل حال فنحن نفرق بين الإيمان الذي هو مقره القلب، وهو كما أفادنا هذا الحديث من عمل القلب، وبين الأعمال التي هي من أعمال الجوارح، فأعمال الجوارح هي أجزاء مكملة للإيمان، ما هي أجزاء أصيلة من الإيمان، إنما كلما ازداد الإنسان عملاً صالحاً؛ كلما قوى هذا الإيمان الذي مقره القلب) [٢].

ويظهر جلياً من كل ما نقلناه أنه قد اتفقت كلمة السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من أهل العلم المعتبرين على أن أن عمل الجوارح جزء من داخل مسمى الإيمان وليس بخارج عنه، وما قالوا هو ركن من أركان الإيمان، ولا قالوا هو شرط فيه، كما يقول المتأخرون، وأن الأقوال بالركنية والشرطية أقوال محدثة، والتعلق بها هو سبب عدم الفهم الحادث لحقيقة الإيمان في الوقت الحاضر[٣]، ولكي نعرف أثر التمسك بهذه الألفاظ المحدثة، تعالى

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢ / ٢٦٦ .

(٢) في شرح الأدب المفرد الشريط السادس الوجه الأول، عند شرح حديث أبي ذر قيل : أي الأعمال خير ؟ ، قال إيمان بالله ... الحديث: نقلاً من: ما هكذا الحقيقة يا أبا رحيم ص ٨٥- ٨٦ .

(٣) **يقول الشيخ الفوزان:** الإيمان قول وعمل واعتقاد، والعمل هو من الإيمان وهو الإيمان، وليس هو شرطاً من شروط صحة الإيمان أو شرط كمال أو غير ذلك من هذه الأقوال التي يروجونها الآن. الإجابات المهمة في المشاكل الملمة ص ١٠٤- ١٠٥ .

قال الإمام الأوزاعي: اصبر نفسك على السُّنَّة ، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكُف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم شرح أصول الاعتقاد ١ / ١٤٧ برقم ٣١٥ ، والشريعة للآجري ص ١٣٩ برقم ٣٢٨ أثر رقم ١٧١ ، وتلبيس إبليس ١١ . وصدق من قال: كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف.

معي لنطبق تعريف الركن والشرط على عمل الجوارح، وما سيترتب على ذلك من منكرات لا يعلم مدى خطرها إلا الله ، وأثر التمسك بقول السلف : أن العمل جزء من مسمى الإيمان، وما يترتب عليه من اتفاق مع منهج السلف، في وسطية الفهم، ومثالية التطبيق.

أولاً: تعريف الركـــن :

قال ابن الصلاح : رُكن الشيء عند الغزالي وعند غيره (ما تركبت حقيقة الشيء منه ومن غيره) ثم قال في تعريف الركن: فأقول والله الموفق : إن ركن الشيء فيما نحن بصدده (عبارة عما لا بد لذلك الشيء منه في وجود صورته عقلاً) (١) .

فالركن جزء من حقيقة الشيء، ولكي يوجد هذا الشيء لابد من وجود الركن، فإن زال الركن زال ذلك الشيء بزواله، ومثاله: الركوع والسجود في الصلاة.

أقول، ولكن انتبـه: فأي شيء يتكون من أركان وغيرها مما ليس بركن ولكنها من لوازم هذا الشيء التي لا يتم ويكمل أصله إلا بها (٢) .

ثانياً: تعريف الشرط:

قال الشاطبي: (المراد بالشرط ما كان وصفاً مكملاً لمشروطه فيما اقتضاه ذلك المشروط، أو فيما اقتضاه الحكم فيه) (٣) ... ثم قال: (فإنما هو وصف من أوصاف ذلك المشروط، ويلزم من ذلك أن يكون مغايراً له بحيث يُعقل المشروط مع الغفلة عن الشرط، وإن لم ينعكس كسائر الأوصاف مع موصوفاتها حقيقة أو اعتباراً) (٤) .

---

(١) أدب المفتي والمستفتي ١ / ٢٦٩ .

(٢) راجع تعريف الركن ودقق فيه جيداً.

(٣) الموافقات ١ / ٢١٣ .

(٤) الموافقات ١ / ٢١٥، ٢١٦ .

أنواع الشرط:

قال الخضري: ما جعله الشارع شرطاً: لا يكون المشروط إلا بوجوده، وهو شرط الصحة، أو لا يكون كاملاً إلا بوجوده، وهو شرط الكمال) [١] .

أقول: فالشرط هو وصف من أوصاف الشيء الخارجة عنه، والتي يُعقل وجود هذا الشيء بدونها، **والشرط الشرعي نوعان:**

شرط صحة: وهو ما يبطل العمل بغيابه مثل الوضوء للصلاة.

شرط كمال: وهو ما ينقص أجر العمل بغيابه مثل عدم تسوية الصف في الصلاة.

انتبه: فشرط الكمال لا يُكمِّل أصل العمل ولكنه يُكمِّل الأجر المتحصَّل منه، فمن عمل عملاً فُقِدَ فيه شرط الكمال فعمله صحيح كامل في ذاته، ولكنه ناقص في الأجر، فإنْ أتى بشرط الكمال زيد له في الأجر، ومثاله تسوية الصف في الصلاة، فمن لم يسوِ الصف أجره ناقص، أما صلاته فكاملة وصحيحة، ومن سوى الصف فصلاته صحيحة وأجره أتم وأكمل.

فمن قال: إن عمل الجوارح ركن من أركان الايمان [٢] ؛ لزمه خمسة أمور سواء أقر أم رفض:

الأول: أن يقول أن من ترك العمل فهو كافر، لأن من ترك ركن من أركان أي عمل فسد هذا العمل، فمن ترك الركوع أو السجود بطلت صلاته؛ لأن كليهما

---

(١) أصول الفقه ص ٦١ .

(٢) إنما قالوا ذلك تأسيساً على قاعدة التلازم بين الظاهر والباطن ، وذلك لما قررناه في القاعدة الرابعة عند الكلام عن أقسام المكلفين ، وبخاصة في الصنف الذين لم يعملوا بجوارحهم مع القدرة والعلم بغير عذر من أنهم لم يدخلوا في الإيمان ، فقالوا : « حيثما انتفى الإيمان انتفى عمل الجوارح فعمل الجوارح ركن فيه ، لأن الإيمان لا ينتفي إلا بانتفاء أحد أركانه » ، ولكنهم لو أمعنوا النظر قليلاً لوجدوا أنه لم ينتف الإيمان عنهم بانتفاء عمل الجوارح ، ولكنه انتفى بانتفاء عمل القلب الذي دل عليه انتفاء عمل الجوارح ، والذي يجلّي لهم الأمر أن الصنف الذي قبله انتفى في حقه عمل الجوارح ورغم ذلك ثبت له إيمان لما معه من عمل القلب ، وبذا يزول الإشكال ويستقر في النفوس أن عمل الجوارح من الإيمان وليس بركن ، أما عمل القلب فهو ركن فيه إن تجاوزنا وسوغنا استخدام هذه الاصطلاحات الحادثة . وحاول أن تقرأ كلام شيخ ابن تيمية وكذا كلام حسنة زماننا الشيخ الألباني الوارد ص ٩٥ ، ٩٦ ، وكذا تعريف الركن والتنبيه الذي بعده ص٩٧، بعيني قلبك قبل عيني رأسك ، فسيرسخ لديك ما قررناه .

ركن فيها.

الثاني: ألا يعذر بالجهل لأنه لو عذر بالجهل فلن يُكفِّر أحداً، وهذان من معتقدات الخوارج.

الثالث: أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأنه إما مؤمن وإما كافر، فليس هناك ناقص إيمان، وهذا من معتقدات المرجئة.

الرابع: أن يقسِّم الناس إلى ثلاثة أقسام: رجلٍ بلا معصية فهو مؤمن، ورجلٍ له معاصٍ ظاهرة وليس له عذر فهو كافر، وثالثٍ مستور الحال فهو في محل شك إلى أن يُختبر ثم يُلحق بأحد الفريقين المتقدمين، وهذا من معتقدات المعتزلة.

الخامس: بما سبق يجتمع فيه شر ثلاث طوائف، الخوارج والمعتزلة ويُقره على ذلك واقع حاله وإن لم يقر بلسانه، والمرجئة وإن تبرأ من الإرجاء واتهم به غيره، فهو خارجي معتزلي مرجيء، وإن أقسم بأغلظ الأيمان أنه خلاف ذلك.

ومن قال إن عمل الجوارح شرط، لزمه أن يحدد، هل هو شرط صحة، أم شرط كمال ؟

فإن قال شرط صحة لزمه ثلاثة أمور:

الأول: أن يُخرِج عمل الجوارح من الإيمان لأنها شرط كما يدَّعى، والشرط هو ما كان خارج عن الشيء.

الثاني: يلزمه ما لزم من قال بركنية العمل من فساد الأمر، لأن شرط الصحه والركن قريبان جداً في الأثر، كمن ترك الوضوء فصلاته باطلة، فلزمه بذلك أن يكفِّر تارك عمل الجوارح.

الثالث: يلزمه إخراج عمل الجوارح من الإيمان وهذا ما ذهبت إليه المرجئة، كما يلزمه أن يكفِّر تاركها وهذا ما ذهبت إليه الخوارج، فاجتمع فيه شر الطائفتين، فهو خارجي مرجيء.

وإن قال: شرط كمال لزمه ثلاثة أمور أيضاً:

الأول: بقوله (شرط) أن يُخرِج عمل الجوارح من الإيمان؛ لأن الشرط ـ كما سبق ـ لابد وأن يكون خارج الشيء، وبذلك يلزمه قول المرجئة سواء أقر أم رفض [١].

الثاني: بقوله (كمال) إن ظن أنه كمال ذات الشيء وقع في التناقض لأن الشيء كامل الذات بدونه [٢] ، وإن قصد كمال الأجر، وصل إلى نفس قول المرجئة من أن العمل ليس من الإيمان.

الثالث: وأيضاً: ما قالها إلا ليحترز مما وقعت فيه المرجئة المحضة ، ويتوافق مع مذهب أهل السُّنَّة في أن العمل من الإيمان من جهة، ومن جهة أخرى ليتسنى له القول بزيادة ونقص الإيمان [٣] ، وبذلك يقع فيما وقع فيه مرجئة الفقهاء [٤] .

فالقول الفصل في المسألة أن عمل الجوارح من الإيمان **(أي من ذات مسمى الإيمان وليس بخارج عنه، وليس بركن)، وإنما هو من اللوازم المتممة للأركان ، أما عمل القلب فبزواله يزول الإيمان بالكلية ، كما يزول بزوال قول القلب.**

---

(١) قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله وقد سئل عمن يقول: إن العمل داخل في الإيمان لكنه شرط كماله فاجاب: لا، لا، ما هو بشرط كمال هو جزء من الإيمان ، هذا قول المرجئة ا. هـ من مجلة المشكاة العدد الثاني ص ٢٩٧ . نقلاً من كتاب رفع اللائمة ص ٥٢ .

(٢) يقول الشيخ الفوزان ـ حفظه الله ـ : وقوله إن الإيمان قول وعمل واعتقاد، ثم يقول: إن العمل شرط في كمال الإيمان وفي صحته، هذا تناقض !! كيف يكون العمل من الإيمان ثم يقول: العمل شرط؟ ومعلوم أن الشرط يكون خارج المشروط، فهذا تناقض. الإجابات المهمة في المشاكل الملمة ص ١٠٤ .

(٣) يقول الشيخ الفوزان ـ حفظه الله ـ فيمن قال أن أعمال الجوارح شرط كمال في الإيمان: هذا يريد أن يجمع بين قول السلف وقول المتاخرين وهو لا يفهم التناقض، لأنه لا يعرف قول السلف ولا يعرف حقيقة قول المتاخرين، فاراد أن يدمج بينهما. السابق ص ١٠٤ .

(٤) **أقول** : اعلم أن أهل السُّنَّة والجماعة لا يحاكمون أحداً ولا يحكمون عليه من خلال لوازم قوله، لأن لازم القول ليس بلازم إن كان قائله لم ينتبه للوازم قوله أولم يقصدها، فإن كان منتبهاً إليها قاصداً لها فمحاكمته والحكم عليه من خلالها صحيح،ولما استبان أن لوازم هذه الأقوال ستفضي إلى هذه الكوارث فالاولى تركها إلى قول صحيح في ذاته صحيحة لوازمه، وهو ما أثبتُّهُ في أول هذا المبحث من أن عمل الجوارح جزء من مسمى الإيمان.

ومن الأمثلة التي توضح علاقة عمل الجوارح بالايمان تركيب جسد الإنسان :

■ فالجذع يمثل العلم والتصديق واليقين وهي تمثل قول القلب كما سبق بيانه.

■ والدماغ تمثل القبول والمحبة وما يتبعها من أعمال القلوب، وهو انقياد القلب، وهي تمثل عمل القلب، وكذا قول اللسان ، وهذه والتي تسبقها هما أصل الإيمان وأُسّه وأساسه فإن زال منها شيء زال الإيمان حتماً.

■ والأطراف تمثل انقياد الجوارح أي عمل الجوارح. وهذه من متممات الإيمان ولوازمه ليست بخارجة عنه، ولكنها تقدح فيه بالنقص أو الزوال بحسب العمل المتروك.

فلو قُطِع طرف من الإنسان لما زال عنه اسم الإنسان، ولكنه أصبح إنساناً ناقصاً، لكن لو نزعنا أحشاءه فلن يعيش، وكذا لو قطعنا دماغه.

قال أبو حامد الغزالي : وقد اشتهر عن السلف قولهم : الإيمان عقد وقول وعمل فما معناه ؟ قلنا . لا يبعد أن يُعد العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الإنسان ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنساناً بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد [١] .

وقال الدكتور/ عمر الأشقر: وذهب أهل السُّنَّة والجماعة إلى أن الإيمان أصولٌ وفروعٌ، وأنه لا يزول إلا بزوال أصله، وأن زوال فرعه بارتكاب المحذورات وترك الواجبات يُنقِص الإيمان ويشوهه، ولكنه لا يُزيله ويُذهبه.

فالإيمان كالإنسان قد لا تزول منه الحياة إذا نقص منه عضو كاليد أو الرجل أو العين أو الأذن، فإذا خُلع قلبه أو قُطع رأسه زالت منه الحياة، ولذلك قالوا في من ارتكب الكبائر من المؤمنين هومؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته [٢] .

وقال أيضاً في رده على الخوارج: أما استدلالهم بأن الأعمال داخلة في

---

(١) الإحياء ١ / ١٨٥ .

(٢) أهل السُّنَّة والجماعة ص ٤٨، ٤٩ .

مسمى الإيمان فلا ننكر عليهم ذلك، ولكن خطأهم أنهم عدوها شرطاً في الإيمان، والصحيح أنها ليست كذلك، فزوالها ينافي كمال الإيمان الواجب، أي إذا زالت زال من الإيمان جزء، وبقى ناقصاً، ومثل ذلك مثل الإنسان تُقطع يده أو رجله أو تُقلع عينه، أو أذنه، ويبقى مع ذلك إنساناً تتردد فيه الحياة، فإذا قُطع وسطه أو رأسه أو قُلع قلبه كان كمن زال الإيمان منه، فزوال اليد أو الرجل أو العين تشبه زوال بعض الأعمال الواجبة أو فعل الأمور المحرمة، وزوال الرأس أو القلب يشبه زوال العقيدة (١).

ومن أعظم الأمثلة التي تُبيِّن أيضاً: أن أعمال الجوارح داخلة في مسمى الإيمان، وليست ركناً فيه، ولا شرطاً من شروطه؛ الشجرة التي ضربها الله مثلاً للإيمان، فهي أكثر مطابقة لحقيقة الإيمان من جسد الإنسان، فتفكَّر فيها فلن تصل إلا إلى نفس النتيجة.

يقول الأشقر: مثل الإيمان كشجرة طيبة ضاربة بجذورها في الأرض الطيبة، وباسقة بسوقها في السماء، مزهرة مثمرة مِعْطاءة، تعطى أُكلها كل حين بإذن ربها، فالإيمان هو الشجرة، وجذورها العقيدة التي تغلغلت في قلب صاحبها، والسوق والفروع والثمار هي العمل.

ولا شك أن الجذور إذا خُلعت أو تعفَّنت فسدت الشجرة، ويبست، ولم يبق لها وجود، وكذلك الإيمان لا يبقى له وجود إذا زالت العقيدة، أما إذا قُطعت الساق والفروع، أو قُطع بعض منها فإن الشجرة تضعف وتهزل، وقد تموت كلياً، لأن وجود الفروع والأوراق ضروري كي تحافظ الشجرة على بقائها، وكذلك الأعمال إذا تُركت أو تُرك جزء منها، فإن الإيمان ينقص أو يزول (٢).

ولمزيد إيضاح أقول: مثل الإيمان مثل الشجرة فجذرها يمثل قول القلب، وساقها يمثل عمل القلب وفروعها تمثل قول اللسان، وأوراقها وأزهارها وثمارها

(١) العقيدة في الله ص ٣٢.
(٢) المرجع السابق.

تمثل عمل الجوارح، فإذا تعفَّن الجذر، أو عطب الساق ماتت الشجرة لا محالة، وإن تساقطت أوراق الشجرة وجفت فروعها من تلقاء نفسها دل ذلك على موت الجذر أو الساق أو ضعف أحدهما ضعفاً شديداً يُسلم إلى الموت، أما إن أُزيلت عن الشجرة فروعها فإنها ما تلبث أن تنشئ أفرعاً جديدة تتناسب طردياً مع قوة الشجرة وضعفها، وإن أُزيلت الساق إلا جزءاً يسيراً منه فإنه ما يلبث أن يُنشئ أفرعاً ضعيفة ما تلبث أن تقوى ويقوى معها الساق، أما إن اجتث الساق تماماً فإن الشجرة لا يبقي لها قرار، وصدق ربي فإن أصدق القول قول ربي إذ يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) ﴾ .

[إبراهيم :٢٤ - ٢٦] .

وبهذا نرد على طائفتين كلتاهما تنتسب إلى أهل السُّنَّة والجماعة في الوقت الحاضر:

الأولى: قالت: طالما أن العمل ركن من أركان الإيمان؛ فمن ترك العمل وبخاصة في المباني الأربعة فقد كَفَرَ كفراً يخرجه من الملة، وهؤلاء يُسمَّوْن بالقطبيين، ويؤخذ عليهم قصر نظرهم، وضيق نظرتهم ودخول شُبهة الخوارج عليهم في تكفير مرتكب الكبيرة، وشُبهة المعتزلة في تقسيم الناس إلى ثلاثة أقسام، وذلك لأنهم لم يفرقوا بين عمل القلب وعمل الجوارح؛ وجعلوهما أمراً واحداً لا ينفك عن بعضه؛ وعدم فهمهم لحقيقة الإيمان المركَّبة .

الثانية: هربت مما وقعت فيه الأولى؛ فأخرجت عمل الجوارح من الإيمان، حتى لا تُكفِّر أحداً من أهل القبلة بذنب لم يستحله، فاتُهِموا بأنهم دخلت عليهم شبهة الإرجاء، ولكنهم في حقيقة الأمر متأولون، ولم يُوفَّقوا إلى الصواب، ووقعوا فيما كانوا يحذرون، ولذلك يُطلق عليهم مرجئة الفقهاء.